الإعجاز القرآني في القصص القرآني (سورة مريم أنموذجا)

The grahic miracles in the Qur'nic stories (surat Maryam as a model)

أ. عبلة زلاقي*

أ. صلاح يوسف عبد القادر*

تاريخ الاستلام: 06-11-2020 تاريخ القبــول: 24-05-2021

ملخّص: يهدف البحث بشكل رئيس إلى تسليط الضّوء على قصّة حمل مريم عليها السّلام في القرآن، والكشف عمّا تميز وتفرد به النّص القرآني، وذلك باتباع منهج التّحليل الوصفي، القائم على تحليل النّصوص القرآنيّة؛ فالله عزّ وجلّ وصف القصص القرآني بأنّه أحسن القصص فيقول:﴿ **نَحنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحسَنَ القَصَصِ بِما أَوحَينا إِلَيكَ هذَا القُرآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبلِهِ لَمِنَ الغافِلِينَ**﴾﴿٣﴾ **(يوسف:3)**، وقد خلص البحث إلى أنّ النّص القرآني مليء بالبنى الجماليّة التي تعدّ من أهمّ ظواهر القصص القرآني، وبخاصّة التّكرار الصّوري للقصّة أكثر من مرّة –إن لم يكن حقيقة تكرار–فالقصّة الواحدة إذا كررت في القرآن فإنّ ذلك يكون لفائدة اشتمل عليها كل موضع خلت منها المواضع الأخرى. كما عبّر القرآن عن هذه القصص بأساليب معينة ووزع على السّور توزيعا خاصًّا بين إيجاز وإطناب، وكل منها منسجم مع أهداف السّورة الأساسيّة والحاصل أنّ المتدبر لقصص القرآن الكريم يجد في كل قصّة من اللطائف ما لا ينفد من المعاني والأهداف الدّينيّة والتّربويّة.

كلمات مفتاحيّة: الحمل–الحق–الخلق–الجعل–ولد–غلام.

*مخبر الممارسات اللّغويّة بالجزائر، جامعة تيزي، وزو–الجزائر، البريد الإلكتروني: abla .zellagui@ummto.dz (المؤلّف المرسل).

*مخبر الممارسات اللغويّة بالجزائر، جامعة تيزي، وزو–الجزائر، البريد الإلكتروني: dr.salahawad.1947@gmail.com .

Abstract: This study aims to shed light on Mary's pregnancy in the Quran. It discloses the features of the Qur'an that makes it unique in accordance with the descriptive method that is based on the analysis of Qur'anic texts. God, the almighty described the quranic stories as the best stories " **We relate unto you (Muhammad SAW) the best of stories through Our Revelations unto you, of this Qur'ân. And before this (i.e. before the coming of Divine Revelation to you), you were among those who knew nothing about it (the Qur'ân) " (Yusuf 3)** The study demonstrates that the text of Quran is full of aesthetic patterns that are considered as the crucial aspects of the quranic stories, in particular, the recurrent stories, which are repeated more than one. If a story is recurrent in the Qur'an, this is due to its benefits that are not seen in other stories. The Qur'an has presented these stories in specific ways with special distribution in terms of redundancy and concession. They are in accordance with the basic objectives of the Surah. The contemplator accordingly of the stories of the Holy Quran will find in each story many traits that are full of religious and educational objectives and meanings.

Keywords: pregnancy, right, creation, kid, boy.

1. **مقدّمة:** يعدّ القرآن الكريم معجزة الله الخالدّة على مرّ الأزمان، ومهما نهلنا من مورده وحاولنا الغوص في أسباره، لن نظفر من المقاصد الرّبانيّة التي أودعها الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز إلاّ القليل. ولعلّ محاولة الاقتراب من دراسة القرآن الكريم سواء أكان بتفسيره أم شرحه أم ببيان بلاغته وإعجازه، ليس بالأمر الهيّن الميسور، ذلك أنّ الخشيّة من الوقوع في الزّلل أو البعد عن المقاصد الرّبانيّة تعدّ حائلا مادام قد أرّق الباحثين والدّارسين، وهذا ممّا قد يسبّب الحرج أثناء البحث القرآني. ولا ريب في أنّ القرآن الكريم بوصفه مصدرا للدّراسة يحفل بالعديد من الإبداع والإعجاز سواء أكان ذلك في الشّكل أم في المضمون، والذي قصدنا إليه من خلال دراستنا هذه هو مقاربة بعض خفايا البيان القرآني وأسراره، وحسبنا أن نقف وقفة المتأمّل الخاشع للكشف ولو عن جزء يسير من الانسجام اللّغوي الذي يميّز هذا النّص المقدّس. فاستقرّ موضوع بحثنا على اللّغة وألفاظها، مقتصرين فيه على مدّة حمل مريم عليها السّلام، وهو موضوعنا في هذا البحث، وعلى الرّغم من سعته وصعوبته إلاّ أنّه لم يزدنا إلاّ إصرارا على خوض غمار هذه التّجربة وذلك إدراكا منّا بأهمّيته وثقل وزنه

في مجال دراسة علوم القرآن، فحاولنا التّركيز على مدّة حمل مريم من جانب لغوي ومن ثمّ كانت آيات الحمل في سورة مريم أنموذجا. في هذا المقال سنتحدّث عن مريم العذراء، فقد اصطفاها الله العزيز الحكيم عن النّساء عليها السّلام، فكانت خير نساء العالمين، وقصّة حملها بسيّدنا عيسى عليه السّلام شغلت بال جميع النّاس، فكانت قصّتها معجزة واية للعالمين، فقصّة مدّة حملها عليها السّلام فيها كثير من الاختلاف، ذلك أنّه لم يرد في القرآن ولا في السّنة هذا الأمر، فوقع اختلاف ولبس بين الدّارسين، وحين نأتي إلى تحديد مدّة حملها سنجد في ذلك اختلافا عند شخص واحد بعينه ذلك أنّه سيفسّر ما ورد في الآيات القرآنيّة بأوجه عدّة، فقد نجد تطابقا مع تحليل شخص آخر أو قد نجد اختلافا.

التّعريف بسورة مريم: المشهور تسميتها بذلك ورويت عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقد أخرج الطّبراني وأبو نعيم والدّيلمي من طريق أبي بكر ابن عبد الله بن أبي مريم الغسّاني عن أبيه عن جده قال: أتيت رسول الله عليه الصّلاة والسّلام فقلت: ولدت لي الليلة جاريّة فقال: والليلة أنزلت علي سورة مريم، وجاء فيما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تسميتها بسورة «كهيعص» وهي مكيّة كما روي عن عائشة وابن عباس وابن الزّبير رضي الله تعالى عنهم، وقال مقاتل: هي كذلك إلا آية السّجدة فإنّها مدنيّة نزلت بعد مهاجرة المؤمنين إلى الحبشة، وفي الإتقان استثناء قوله تعالى: "**وَإِن مِنكُم إِلّا وارِدُها كانَ عَلى رَبِّكَ حَتمًا مَقضِيًّا** ﴿٧١﴾"[1] أيضا، وهي عند العراقيين والشّاميين ثمان وتسعون اية وعند المكيين تسع وتسعون وللمدنيين قولان، ووجه مناسبتها لسورة الكهف اشتمالها على نحو ما اشتملت عليه من الأعاجيب كقصّة ولادة يحيى. وقصّة ولادة عيسى عليهما السّلام ولهذا ذكرت بعدها، وقيل إن أصحاب الكهف يبعثون قبل السّاعة ويحجون مع عيسى عليه السّلام حين ينزل ففي ذكر هذه السّورة بعد تلك مع ذلك إن ثبت ما لا يخفى من المناسبة ويقوى ذلك ما قيل إنّهم من قومه عليه السّلام وقيل غير ذلك[2]..

سورة مريم: سورة مريم من السّور المكيّة، أيّ أنّ جلّ آياتها نزلت على رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– في مكّة المُكرّمة، ما عدا الآيات 58 و71 فهذه الآيات مدنيّة، ويبلغ عدد آيات سورة مريم ثماني وتسعين اية، وهي السّورة التّاسع عشرة في

ترتيب سور القرآنِ الكريم، وقد نزلت بعد سورة فاطر، وتقع في الجزء السّادس عشر سُميّت بسورة مريم نسبةً إلى مريم أمِّ السّيّد المسيح نبيّ الله –عليه السّلام–، وتعدّ السّورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي نزلت باسم امرأة، وقد خلّدت هذه السّورة ذكرى مريم العذراء التي ولدت السّيّد المسيح بمعجزةٍ إلهيّة، فلم يكن له والدٌ، وهذا ما يعتقد به المسيحيون والمسلمون، وسيطرح هذا المقال سبب نزول سورة مريم.[3]

سبب تسميّة سورة مريم: قبل الحديث عن سبب نزول سورة مريم، من الممكن معرفة سبب تسميتها بهذا الاسم، فهي السّورة الوحيدة من سور القرآن الكريم التي حملت اسم امرأة، وهي مريم بنت عمران، والدّة السّيّد المسيح –عليه السّلام–، فجعل الله تعالى هذه السّورة تخليدًا لذكرى هذه المرأة العظيمة، التي ولدت ابنها المسيح بمعجزة إلهيّة غير مسبوقة، فكانت عذراء وليس لها زوج، وجاء المسيح –عليه السّلام– من غير أبٍ، وهذا بحسب المعتقدات المسيحيّة والإسلاميّة، ويعدّ اسم السّيّدة مريم هو الاسم الوحيد الذي ذكر في القرآن صراحةً من بين كل أسماء النّساء، ممّا يدلُّ على عظيم شأنّها في الإسلام، وقد جاء ذكرها أيضًا في سورة آل عمران، في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾ ﴿**٤٢**﴾"،[4] أيّ أنّ مريم العذراء هي أفضل نساء العالمين، وقد ورد ذكر السّيّدة مريم في سورة التّحريم، في قوله تعالى: ﴿**وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ**﴾ ﴿**١٢**﴾"،[5] وورد ذكرها أيضًا في حديث رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم–: "كَمَلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ: إِلَّا آسِيَة امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، وإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ"،[6]والله أعلم.[7] سبب نزول سورة مريم يعد علم أسباب النّزول من أهم العلوم الشّرعيّة في الإسلام فهو يسّهل معرفة تفسير الآيات، ومعرفة مقاصد هذه الآيات، ومن أسباب نزول الآيات في سورة مريم ما يأتي:[8] سبب نزول سورة مريم الآية الرّابعة والسّتين: فقد جاء في الحديث الشّريف أن "أبطأَ جبريلُ على النّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ أربعينَ يومًا ثمَّ أنزلَ، فقالَ لَهُ النّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ: ما نَزلتَ حتَّى اشتقتُ إليكَ، فقالَ لَهُ جبريلُ: أَنا كنتُ إليكَ أشوَقَ ولَكِنِّي مَأمورٌ، فأوحى اللَّهُ إلى جبريلَ: أن قُلْ لَهُ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ

رَبِّكَ"،[9]وكان ذلك سبب نزول الآية الكريمة من سورة مريم، ﴿**وَما نَتَنَزَّلُ إِلّا بِأَمرِ رَبِّكَ لَهُ ما بَينَ أَيدينا وَما خَلفَنا وَما بَينَ ذلِكَ وَما كانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾﴿٦٤﴾"[10]. سبب نزول سورة مريم الآية السّادسة والسّتين: جاء عن الكلبيّ أن أبيّ بن خلف مسك بيده عظامًا، وبدأ يفتها بيده قائلًا: "زعم لكم محمّد أنّا نبعث بعدما نموت"، فنزل فيه قوله تعالى في سورة مريم: ﴿ **وَيَقولُ الإِنسانُ أَإِذا ما مِتُّ لَسَوفَ أُخرَجُ حَيًّا**﴾ ﴿٦٦﴾"[11]. سبب نزول سورة مريم الآية السّابعة والسّبعين: يُقال إنّ هذه الآية قد نزلت في واحد من المشركين وهو العاصّ بن وائل السّهمي، وقد كان للصحابي خبّاب بن الأرت عند العاصّ دين، وكان العاصّ يؤخر سداد هذا الدّين وقال لخباب: "لا أقضيك حتى تكفر بمحمّد"، فرفض خباب ذلك وقال للعاصّ: "لا أكفر حتى تموت وتبعث"، فسخر العاصّ من كلام خبّاب بن الأرت عن البعث والنّشور وقال: "إني إذا مت ثم بعثت، جئني وسيكون لي مال وولد فأعطيك، فنزلت الآية الكريمة من سورة مريم: ﴿**أَفَرَأَيتَ الذي كَفَرَ بِآياتِنا وَقالَ لَأوتَيَنَّ مالًا وَوَلَدًا**﴾ ﴿٧٧﴾"[12].سبب نزول سورة مريم الآية السّادسة والتّسعين: جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة أنّ الله تعالى أراد بها أن يخبر عباده الصّالحين أنّه غرس في قلوبهم المحبّة والمودة، وذلك في قوله تعالى من سورة مريم: ﴿**إِنَّ الذينَ آمَنوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحمنُ وُدًّا**﴾ ﴿٩٦﴾".[13]

ومن اللّطائف البيانيّة التي وردت في آيات الحمل عرضا قوله تعالى: ﴿ **وَاذكُر فِي الكِتابِ مَريَمَ إِذِ انتَبَذَت مِن أَهلِها مَكانًا شَرقِيًّا**﴾ ﴿١٦﴾"[14] لنقل إنّ حمل مريم عليها السّلام كانت مدّته تسعة أشهر، فلو عدنا إلى السّورة لوجدنا أنّها بدأت الحديث عن حملها من الآية 16 التي سبق ذكرها ففيها بداية الحديث عن الحمل إلى غاية الآية 24 في قوله تعالى: " فناداها من تحتها" أيّ في معرض هذه الآية " فناداها من تحتها" يقصد الولادة هنا، فلو قمنا بعمليّة حسابيّة لوجدنا عدد الآيات تسعة وهو ما يتمشّى مع أشهر الحمل التّسعة فيكون حملها تسعة أشهر.

وفي الآية 16:﴿**وَاذكُر فِي الكِتابِ مَريَمَ إِذِ انتَبَذَت مِن أَهلِها مَكانًا شَرقِيًّا** ﴿١٦﴾[15] وقوله **فَحَمَلَتهُ فَانتَبَذَت بِهِ مَكانًا قَصِيًّا**﴾ ﴿٢٢﴾"[16] هنا قد يكون دليلا على أنّها حملت به تسعة أشهر، والدّليل أنّها انتبذت به حتّى تتجنّب عيون النّاس. ولماذا ذكر هنا الفعل انتبذ وليس نبذ؟

جاء في التّحرير والتّنوير: "إذ هنا مجرّد اسم زمان غير ظرف ويجعل بدلا من مريم، أيّ اذكر زمن انتباذها مكانا شرقيا، وقد تقدّم مثله في قوله تعالى: ﴿ **ذِكرُ رَحمَتِ رَبِّكَ عَبدَهُ زَكَرِيّا**﴾ ﴿٢﴾﴿ **إِذ نادى رَبَّهُ نِداءً خَفِيًّا** ﴿٣﴾"[17] والانتباذ الانفراد والاعتزال، لأنّ النّبذ الإبعاد والطّرح، فالانتباذ في الأصل افتعال مطاوع نبذه، ثمّ أطلق على الفعل الحاصل دون سبق فاعل له، وانتصب (مكانا) على أنّه مفعول (انتبذت) لتضمنه معنى حلت، ويجوز نصبه على الظّرفيّة لما فيه من الإبهام والمعنى ابتعدت عن أهلها في مكان شرقيّ ونكّر المكان إبهاما له لعدم تعلّق الغرض بتعيين نوعه إذ لا يفيد كمالا في المقصود من القصّة.[18] ولو عدنا إلى معاجم اللّغة لوجدنا اختلافا بين الفعل نبذ وانتبذ، فقد جاء في لسان العرب لابن منظور: " النّبذ طرحك الشّيء من يدك أمامك أو وراءك، نبذت الشّيء أنبذه نبذا إذا ألقيته من يدك، ونبذته، شدّد للكثرة، ونبذت الشّيء أيضا إذا رميته وأبعدته، ومنه الحديث: فنبذ خاتمه، فنبذ النّاس خواتيمهم أي ألقاها من يده، وكلّ طرح: نبذ، ينبذه نبذا...ونبذ الكتاب وراء ظهره: ألقاه. وفي التّنزيل: "فنبذوه وراء ظهورهم"، وكذلك نبذ إليه القول. والمنبوذ ولد الزّنا لأنّه ينبذ على الطّريق. وانتبذ عن قومه: تنحّى وانتبذ فلان إلى ناحيّة، قال تعالى في قصّة مريم: "فانتبذت من أهلها مكانا شرقيا"، والمنتبذ: المتنحّي ناحيّة، قال لبيد: يجتاب أصلا قالصّا، متنبذا بعجوب أنقاء، يميل هيامها.

وانتبذ فلان أيّ ذهب ناحيّة. وفي الحديث أنّه مرّ بقبر منتبذ عن القبور أيّ منفرد بعيد عنها..."[19] ويقول في ذلك الأصفهاني: " النّبذ إلقاء الشّيء وطرحه لقلّة الاعتداد به، ولذلك يقال نبذته نبذ الفعل الخلق، فنبذوه وراء ظهورهم لقلّة اعتدادهم به. ونبذه فريق منهم أيّ طرحوه لقلّة اعتدادهم به، فانبذ إليهم على سواء، فمعناه ألق إليهم السّلم...

﴿**وَاذكُر فِي الكِتابِ مَريَمَ إِذِ انتَبَذَت مِن أَهلِها مَكانًا شَرقِيًّا** ﴿١٦﴾ **فَاتَّخَذَت مِن دونِهِم حِجابًا فَأَرسَلنا إِلَيها روحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَرًا سَوِيًّا** ﴿١٧﴾ **قالَتّ إِنّي أَعوذُ بِالرَّحمنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴿١٨﴾ **قالَ إِنَّما أَنا رَسولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا** ﴿١٩﴾ **قالَتّ أَنّى يَكونُ لي غُلامٌ وَلَم يَمسَسني بَشَرٌ وَلَم أَكُ بَغِيًّا** ﴿٢٠﴾ **قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجعَلَهُ اية لِلنّاسِ وَرَحمَةً مِنّا وَكانَ أَمرًا**

مَقضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتهُ فَانتَبَذَت بِهِ مَكانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾فَأَجاءَهَا المَخاضُ إلى جِذعِ النّخلَةِ قالتّ يا لَيتَني مِتُّ قَبلَ هذا وَكُنتُ نَسيًا مَنسِيًّا ﴿٢٣﴾"[20] أيّ اختارت إلقاء نفسها إلى مكان شرقيّ قصيّ من البلد، مستغنيا عن أهلها، والانتباذ افتعال ويدلّ على اختيار الفعل استغناء. وهذا الانقطاع عن الأهل والبلد والتّوجه الخالصّ إلى الله المتعال، أوجب نزول الرّوح إليها وهبة الغلام الزّكي، ثمّ تأمين معاشها بجريان الماء وبأثمار النّخلة اليابسة."[21] وقد نورد تحليلا آخر فنقول بأنّ حملها عليها السّلام كالنّساء جميعا، فعيسى عليه السّلام نفخ في بطنها وهذا أمر شائع عند كلّ امرأة حامل، فنأتي بالآية 17 في قوله تعالى: ﴿**فَاتَّخَذَت مِن دونِهِم حِجابًا فَأَرسَلنا إلَيها روحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَرًا سَوِيًّا** ﴿١٧﴾"[22] هنا أرسل الله عزّ وجلّ جبريل عليه السّلام في صورة (هيئة) رجل سويّ (بشرا سويّا) حتّى لا تستغربه أو تنفر منه، إذا فكان حملها كحمل النّساء وإنّ ما يميّزها عن البقيّة أنّها حملت بمعجزة السّماء، فلم يذكر بذلك اسما لوالدّ عيسى وتلك مشيئة الله لأنّ الله إذا أراد شيئا فإنّما يقول له كن فيكون. وهنا قد يتساءل شخص ما، ما المقصود بروحنا في قوله تعالى: ﴿**فَأَرسَلنا إلَيها روحَنا**﴾ فما المقصود بروحنا في هذا السّياق؟ **فَتَمَثَّلَ لَها بَشَرًا سَوِيًّا** هذه الجملة إتمام للجملة السّابقة، فقد يكون الرّوح هنا الأب ولكنّه أب روحيّ، ومن ثمّ هو حمل كحمل بقيّة النّساء. وفي هذا يقول محمّد جواد مغنيّة: " المراد بروحنا جبريل، وقد تمثّل أمامها في صورة إنسان تامّ الخلقة. وفي بعض التّفاسير أنّه جاءها في صورة الإنسان لتأنس به وفي تفسير ثان أنّها خافت منه وذعرت لهذه المفاجأة..غريب يقتحم عليها من غير استئذان، وهي في عزلتها؟ ! إنّ هذا لشيء مريب، وهذا القول أرجح وأصح بدليل أنّها فزعت وقالتّ: " إنّي أعوذ بالرّحمن منك إن كنت تقيا."[23]

وفي الآية:﴿ **قالتّ إنّي أَعوذُ بِالرّحمنِ مِنكَ إن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾**"[24] يمكننا القول إنّ حملها يكون في اللّحظة نفسها التي نزل فيها الوحي، فكان حوارا جميلا مع جبريل عليه السّلام ﴿**قالتّ إنّي أَعوذُ بِالرّحمنِ مِنكَ إن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قالَ إنَّما أَنا رَسولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قالتّ أَنّى يَكونُ لي غُلامٌ وَلَم يَمسَسني بَشَرٌ وَلَم أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجعَلَهُ اية لِلنّاسِ وَرَحمَةً مِنّا وَكانَ أَمرًا مَقضِيًّا ﴿٢١﴾**"[25] هنا نلاحظ تفاعلا بين جبريل ومريم بأنّ الله عزّ وجل

سيهب لك غلاما فتتعجّب من هذا بقولها: " أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر" وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلّ على قدرة الخالق، لأنّه لا يعطي (يهب) الشّيء إلاّ من يملكه وهذا دلالة على غنى الخالق، فجاءت العطيّة في شكل اية للنّاس، فهل يعقل أن يكون هذا العطاء من مخلوق ضعيف؟ ! وما يؤكّد هذا آخر الآية "وكان أمرا مقضيا" أيّ لا نقاش فيه فهو أمر محقّق واقع لا محالة، وهذا دلالة الله العجيبة لمن آمن به. وإذا ما تمعّنا في الآية وجدنا أنّ حمل مريم عليها السّلام كان كحمل أمّ يحيى زوجة زكريا، في قوله تعالى: ﴿ **يا زَكَرِيّا إِنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسمُهُ يَحيى لَم نَجعَل لَهُ مِن قَبلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قالَ رَبِّ أَنّى يَكونُ لي غُلامٌ وَكانَتِ امرَأَتي عاقِرًا وَقَد بَلَغتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَد خَلَقتُكَ مِن قَبلُ وَلَم تَكُ شَيئًا ﴿٩﴾**"[26]. وفي الآية استفهام مريم عليها السّلام:﴿ **قالتّ أَنّى يَكونُ لي قَالتّ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّـهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾**"[27] فكلمة ولد في سؤالها توحي بأنّ استفهامها ما هو إلاّ دهشة من إمكانيّة حدوث الحمل (الإنجاب عموما) بغضّ النّظر عن جنس المولود؛ وهذا يفسّر طرحها لهذا السّؤال التّعجبي مع أنّ الملك أخبرها في البشرى أنّه جاءها ليهب لها غلاما. والغلام ذكر حصرا، فلمّا سالتّ هذا السّؤال قصدت التّعبير عن استغرابها فكرة الإنجاب عموما ولم يمسسها بشر، ومن ثمّ فاستعمال كلمة (ولد) هنا أبلغ من غلام، فلو قالتّ: ﴿**أَنّى يَكونُ لي غُلامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ**﴾ فيتوهّم أنّها يمكن أن تنجب جاريّة في حال لم يمسسها بشر، ولذلك فكلمة ولد أبلغ في عموميّتها لأنّ المقصود منها أن تعبّر عن الدّهشة. وقد فصّل في هذه النّقطة د. فاضل السّامرائي قائلا: الملك قال لها:﴿**قالَ إِنَّما أَنا رَسولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا**﴾ فالجواب يكون لغلام فهي نهجت نهج الملك، وفي سورة آل عمران: ﴿ **إِذْ قَالتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّـهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾**"[28] في كلمة عامة، أعمّ من الغلام، ما قال غلاما ولا ولد فقالتّ: **أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ** وولد أعمّ من الغلام، وولد نحن قلنا من الذّكر والأنثى فلمّا كان التّبشير بكلمة وهي أعمّ" كلمة منه" ذكرت العامّ وهو الولد ولمّا كان التّبشير بالغلام أخصّ، قال اسمه لأنّه مسبوق بكلمة وهي كلمة عامة،

وهناك أمر آخر حقيقة في سورة مريم أنّه كان من بشّرها ملك واحد ﴿**فَتَمَثَّلَ لَها بَشَرًا سَوِيًّا**﴾ ﴿**إِنَّما أَنا رَسولُ رَبِّكِ**" "**إِنّي أَعوذُ بِالرَّحمنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾ " وفي آل عمران: ﴿**إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ**﴾ جمع أيّ أعمّ، فالولد يطلع على الواحد وعلى الجمع ، وهو في اللّغة مفرد وجمع، فلمّا جاء بالولد فلمّا جاء بالملائكة ﴿**إِن تَرَنِ أَنا أَقَلَّ مِنكَ مالًا وَوَلَدًا** ﴿٣٩﴾" **(الكهف: 39)** نحسب ذكر الولد الذي يطلق على الجمع أيّ الملاءمة من جهتين من جهة المفرد ومن جهة مناسبة البشارة، إذن فالولد عامّة، فكلّ غلام ولد وليس كل ولد غلام.[29] وجاء كذلك في تفسير الطّباطبائي: " مس البشر بقرينة مقابلته للبغي وهو الزّنا كناية عن النّكاح وهو في نفسه أعمّ، ولذا اكتفى في القصّة من سورة آل عمران بقوله " ولم يمسسني بشر" والاستفهام للتّعجب أيّ كيف يكون لي ولد ولم يخالطّني قبل هذا الحين رجل لا من طريق الحلال بالنّكاح ولا من طريق الحرام بالزّنا." [30] إذن فجاء ردّها من قبيل المشاكلة اللفظيّة على الرّسول الذي ذكر لها الغلام في أثناء كلامه﴿ **قالَ إِنَّما أَنا رَسولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلامًا زَكِيًّا** ﴿١٩﴾" **(مريم:19** (وليس سؤالا للّه لذلك أجاب الملك﴿ **قالَ كَذلِكِ قالَ رَبُّكِ**﴾ **(مريم:21)**. نخلص إلى أنّ هذا ما تعارف عليه الأصوليون: التّعبير عن الشّيء بجنسه تارة وبنوعه تارة لا تعارض بينهما مثل الثّعبان والحيّة والولد والغلام...إلخ وهي قاعدة الجمع باختلاف الحال أو الوصف. ولعلّ رأي الدّكتور فاضل السّامرائي هو الأقرب لما ورد في اللغة فلفظة غلام في اللغة جاءت بمعنى: (مفرد) ج أغلمة وغلمان وغلمة: صبيّ حين يولد إلى أن يشيب أو حين يقارب سنّ البلوغ، ويطلق على الرّجل مجازا "فبشرناه بغلام حليم" "وأمّا الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة" غلام مراهق: مقارب للحلم.[31] أمّا الولد: كلّ ما ولد (ويطلق على الذّكر والأنثى والمثنى والجمع) ج (أولاد وولدة والرّهط).[32] نعود للآية ﴿**فَحَمَلَتهُ فَانتَبَذَت بِهِ مَكانًا قَصِيًّا** ﴿٢٢﴾"[33]في لفظة حملته في هذه الآية الحمل يكون في اللّحظة نفسها، فالله عزّ وجل لم يقل (فحملت به) فلو قالها لقلنا من الممكن أن يكون في أيّ مرحلة من مراحل النّمو في الرّحم ولكن هنا (فحملته) دفعة واحدة أيّ به كلّه، وهذا هو الإعجاز فالله سبحانه وتعالى تجاوز مراحل تكوّن الجنين في بطن أمّه، من نطفة وعلقة وعظام فجاءت النّتيجة في الحمل مباشرة دون المرور بالمراحل المتعارف عليها،

واللفظ يكون بيّنا واضحا (حملته وحملت به) ففرّق بين اللّفظتين. وفي الآية 3 ﴿**فَأَجاءَهَا المَخاضُ إلى جِذعِ النّخلَةِ قالتّ يا لَيتَني مِتُّ قَبلَ هذا وَكُنتُ نَسيًا مَنسِيًّا** ﴿٢٣﴾[34] فنسيا منسيّا منتهى الإعجاز اللّغوي والذي يعني الشّيء الذي ينسى ويهرب من الذّاكرة ولن تستطيع تذكّره أبدا طوال حياتك وليس نسيا فقط لأنّ الشّيء المنسيّ يمكن تذكّره لو مرّ على الخاطر أيّ شيء يذكّرك به، أمّا نسيا منسيّا فهو خروج الشّيء من ذاكرتك نهائيّ وكأنّه لم يحدث أصلا. في هذا يقول الشّوكاني: قبل هذا الوقت تمنّت الموت لأنّها خافت أن يظنّ بها السّوء في دينها، أو لئلّا يقع قوم بسببها في البهتان، وكلمة نسيّا: النّسي في كلام العرب: الشّيء الحقير الذي من شأنه أن ينسى ولا يذكر ولا يتألّم لفقده، كالوتد والحبل، ومنه قول الكميت:

أ تجعلنا خسرا لكلب قضاعة ولسنا نسيّا في معد ولا دخل.

وقال الفرّاء: النّسي ما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها، فتقول مريم نسيا منسيا أيّ: حيضة ملقاة، وقد قرئ بفتح النّون وكسرها، وهما لغتان مثل الحجر والحجر والوتر والوتر، وقرأ محمّد بن كعب القرظي (نساء) بالهمز مع كسر النّون، وقد قرأ نواف البكالي بالهمز مع فتح النّون، وقرأ بكر بن حبيب (نسيا) بفتح النّون وتشديد الياء بدون همز، والمنسيّ المتروك الذي لا يذكر ولا يخطر ببال أحد من النّاس."[35]

فجاءتها البشرى في الآية الموالية: ﴿**فَناداها مِن تَحتِها أَلّا تَحزَني قَد جَعَلَ رَبُّكِ تَحتَكِ سَرِيًّا** ﴿٢٤﴾"[36] يظهر لنا جليّا في هذه الآية بلاغة القرآن الكريم، وذلك في لفظة "سريّا" والتي يرى الكثير من الدّارسين بأنّها تعني النّهر، ولكنّها تعطي مدلولا أعمق أيّ ما يذهب الهمّ والحزن بكلام رهن الإشارة، فنردّ على من قال بأنّه النّهر أنّه لا ينفع النّهر مريم بشيء لتبرئة نفسها ممّا يقال فيها، خاصّة وأنّ قومها واجهوها ونعتوها بألفاظ لا تليق، بل معنى "قد جعل ربّك تحتك سريّا" والمتحدّث هنا جبريل فناداها من تحتها قد جعل ربّك تحتك أيّ (عيسى) رهن إشارتك وتحت أمرك، فمدلول سريّا هنا جاءت بمعناها اللّغوي يذهب همّك وحزنك، وتكلّمه يكون رهن بإشارة منك فلمّا وصلت إلى حال لتبرّئ نفسها من الذي قيل فيها من قبل قومها أشارت إليه لتترك الرّد لعيسى للإجابة على قومها، فتحدّث عيسى من بعدها بتبرئتها ممّا نسب إليها من كلام لا يليق بمكانتها، لذلك لا توافق كلمة سريّا النّهر مع إشارة مريم بل

تتوافق كما بنيت لغويا. وفي هذا الشّأن رأي للدكتور صلاح عوض الذي يميل إلى رأي ابن عباس رضي الله عنهما: لأسباب نقليّة وأخرى عقليّة تتمثّل في:

1- أنّ ابن عبّاس هو ترجمان القرآن وهو حبر الأمّة.

2- أنّ ابن عبّاس حظي بدعاء الرّسول عليه السّلام وقد مسح بيده الشّريفة على صدره قائلا: اللّهم فقّه في الدّين وعلّمه التّأويل وتأويل القرآن خاصّة علم لدني من لدن الله سبحانه وتعالى وليس علما مكتسبا كما يريده بعضهم.

3- هو أنّ ابن عبّاس أحد رواة الحديث الثّقات.

4- أنّ عيسى عليه السّلام اية نبض القرآن الكريم فتخلّقه في رحم أمّه سريع كتخلّق آدم ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّـهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴿٥٩﴾"[37] فإذا كان تخلّق آدم أبي البشر بهذه السّرعة ولم يكن الدّاعي لذلك إثبات قدرته عزّ وجلّ لأنّ المخاطبين هم الملائكة الذين لا يحوجهم إثبات قدرة الله على أن يقول للشيء كن فيكون، فالأحرى إثبات هذه القدرة لأناس قلوبهم غلف هم بنو إسرائيل الذين لا يؤمنون إلاّ بما تقع عليه حواسهم ولذلك كان قولهم لمريم وقد جاءت تحمله " يا مريم لقد جئت شيئا فريّا" إلخ القصّة القرآنيّة وهي قصّة في حاجة إلى بحث لغوي.

5- أنّ حياة عيسى اية الله كلّها معجزات مادّيّة من تخلّقه في رحم أمّه مرورا بمشيه على الماء وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله وغير ذلك لعلّ بني إسرائيل الذين أرسل إليهم لا يؤمنون بعد بهذه المعجزات المادّيّة.

6- أراد الله سبحانه أن يخفّف عن مريم عليها السّلام آلام الحمل الطّبيعي بتقصير مدّته إلى أسبوع كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء ومع هذه المدّة القصيرة ناداها جبريل من تحت النّخلة قائلا: " ألاّ تحزني قد جعل ربّك تحتك سريّا، وهزّي إليك بجذع النّخلة تساقط عليك رطبا جنيّا فكلي واشربي وقرّي عينا" فليس من المعقول أن تبقى على هذه الحال مدّة الحمل الطّبيعي وقد انتبذت من أهلها مكانا قصيا بعد أن شعرت بالحمل.[38] أمّا تعقيبنا على النّقطة الرّابعة للدكتور صلاح عوض ففحواه أنّ هناك من يقول إنّه لا توجد فترة بين خلق عيسى من تراب وبين وضعه نطفة في قرار مكين، فالله سبحانه وتعالى عندما قال: " إنّ مثل عيسى عند الله

كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون" .نجد أنّ كلمات القرآن لها دلالات محدّدة، فالله سبحانه وتعالى عندما قال (عيسى) لم يقصد ابن مريم ولا المسيح فليس هناك تصريح يوضّح أو يشير إلى ذلك. فلفظ (عيسى) يقصد به (النّطفة) فقط وحين خلق الله نطفة عيسى لم تكن لها علاقة بمريم ولا بالمسيح، فالعلاقة بين النّطفة ومريم لم تبدأ بعد، أيّ أنّه لا علاقة بينهما ولهذا استعمل لفظ (فيكون) وهو فعل مضارع للمستقبل. ولذلك يكون التّماثل في خلق آدم والمسيح في خلق النّطفة فقط.

ومن جملة التّماثل في قصّة عيسى وآدم عليهما السّلام ذكر لفظ آدم وعيسى 25 مرّة لكلّ منهما ولم يؤخذ بعين الفصل لفظ (ابن مريم) أو (المسيح) أو(المسيح عيسى بن مريم) التي وردت في القرآن الكريم، لأنّ نسبه لمريم لم يكن قد بدأ، فهو مجرّد نطفة، وهذه النّطفة أوكل الله عزّ وجل لملك بأن ينفخ فيها في رحم مريم عليها السّلام ليخلق منها هذه الكلمة والتي هي شهادة الحق، ويتّضح ذلك جليّا في قوله تعالى: ﴿**ذلِكَ عيسَى ابنُ مَريَمَ قَولَ الحَقِّ الذي فيهِ يَمتَرونَ ﴿٣٤﴾**[39] وقوله: **إِنّي عَبدُ اللَّـهِ آتانِيَ الكِتابَ وَجَعَلَني نَبِيًّا ﴿٣٠﴾**"[40] وهذه هي كلمة الحقّ أو الشّهادة من عيسى عليه السّلام بأنّه عبد لله وليس ابنا له كما يدّعي اليهود الذين قال فيهم عزّ وجلّ:﴿**إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾**" [41]فكان ما نطق به إلى قومه هو الإقرار والاعتراف بعبوديته لله ورسوله ردّا على من علا من بعده في شأنه بأنّ الله تعالى جعلني آمرا بالمعروف ومرشدا للضالّ وناصرا للمظلوم وبرّا بوالدّتي ولم يقل والدّي، علم أنّه الشّيء من جهة الله، قال الكسائي: "قول الحق نعت لعيسى أيّ ذلك عيسى بن مريم وسمّي قول الحقّ كما سمّيت كلمة الحق."[42]

ومن اللّطائف البيانيّة التي وردت عرضا قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّـهَ الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾**[43].

وقوله تعالى في الأعراف :﴿**هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنها زَوجَها لِيَسكُنَ إِلَيها فَلَمّا تَغَشّاها حَمَلَت حَملًا خَفيفًا فَمَرَّت بِهِ فَلَمّا أَثقَلَت دَعَوَا اللَّـهَ رَبَّهُما لَئِن آتَيتَنا صالِحًا لَنَكونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ﴿١٨٩﴾**[44] ومن هذه الآيات الكريمات نستطيع أن نلحظ أنّ معنى الفعل خلق يتساوى تعبيريا مع الفعل جعل لأنّ الله عزّ

وجلّ في موضع هذه الآيات يتحدّث عن قضيّة واحدة تحمل مدلولا واحدا وهو قضيّة خلق الزّوج بداية من الزّوج الأوّل حواء عليها السّلام، وإن كان لغويا الفعل خلق يختلف تماما عن الفعل جعل. فالخلق هو الإيجاد المبدئي من العدم، وهو فعل يدل على خاصيّة إلهيّة لا يجوز أن تنسب إلى بشر. أمّا "جَعَلَ" فهو فعل يعني تقدير أو إنتاجها أو إضفائها هيئة معينة وحالا معيّنا على شيء تم خلقه فعلاً قبلاً.

جاء في القاموس المحيط:

(خ ل ق). (فعل: ثلاثي متعد) **خَلَقْتُ، أَخْلُقُ، اُخْلُقْ**، مصدر **خَلْقٌ**.

خَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ: أَوْجَدَهُ مِنَ العَدَمِ، أَنْشَأَهُ، صَوَّرَهُ[45].

وفي الصّحاح:

(ج ع ل): **جَعَلَ** كذا من باب قطع و**مَجْعَلاً** أيضا بوزن مقعد و**جَعَلَهُ** نبيّا صيّره **وجعلوا** الملائكة إناثا سموهم.[46] ولتوضيح هذه النّقطة نستدلّ بما جاء عن الدّكتور فاضل السّامرائي في حصّة لمسات بيانيّة:

الفرق بين الخلق والجعل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّـهَ الذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّـهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾" (النّساء:1). وفي الأعراف قال:**﴿هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنها زَوجَها لِيَسكُنَ إِلَيها فَلَمّا تَغَشّاها حَمَلَت حَملًا خَفيفًا فَمَرَّت بِهِ فَلَمّا أَثقَلَت دَعَوَا اللَّـهَ رَبَّهُما لَئِن آتَيتَنا صالِحًا لَنَكونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ﴿١٨٩﴾" (الأعراف:189).**

وفي الزّمر: **﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّـهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾" (الزّمر: 6).**

فما اللّمسة البيانيّة في الاختلاف بين الآيات؟ وما الفرق بين الخلق والجعل؟

د. فاضل السّامرائي:

-الجعل في الغالب حالة بعد الخلق فالخلق أقدم وأسب؛

-جعل الزّرع حطاماً ليست مثل خلق الزّرع حطاما؛

-جعل بمعنى صيّر، هو خلقه ثم جعله و﴿**جَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ ﴿٦٠﴾ (المائدة:60)**. لا يعني خلقهم وإنما يعني صيّرهم.

إذن في الغالب الجعل بعد الخلق ﴿**قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴿١٢٤﴾ (البقرة: 124)**. صيّره إماماً وليس خلقه إماماً .

إذن هذا الأمر العام ولذلك كان (جعل زوجها) بعد الخلق، نلاحظ في سورة النّساء قال: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴿١﴾ (النّساء:1)**.

هذا في آدم وحواء، هذا خلق .

﴿**هُوَ الذي خَلَقَكُم مِن نَفسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنها زَوجَها لِيَسكُنَ إِلَيها فَلَمّا تَغَشّاها حَمَلَت حَملًا خَفيفًا فَمَرَّت بِهِ فَلَمّا أَثقَلَت دَعَوَا اللَّـهَ رَبَّهُما لَئِن آتَيتَنا صالِحًا لَنَكونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ﴿١٨٩﴾ فَلَمّا آتاهُما صالِحًا جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّـهُ عَمّا يُشرِكونَ ﴿١٩٠﴾ (الأعراف:189-190)**. هذه ليس آدم وحواء وإنما بعد، ذاك خلق وهذا جعل، جعل هذه زوج هذه . في سورة الزّمر قال: ﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّـهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾**" **(الزّمر:6)**. خلقكم من نفس واحدة آدم وهذا الأصل لكن جعل زوجة فلان زوج فلان، ﴿**خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**" يقصد حواء وجعل منها زوجها(الكلام عن الذّريّة فلما ذكر حواء قال: خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ولما ذكر الذّريّة قال جعل منها زوجها) [47].وتعقيبا على الدّكتور السّامرائي فإنّا نرى أنّ كلامه سليم لأنّ الخلق هو إنشاء جديد والجعل هو التّغيير في الصّيرورة، وتأكيدا لكلامه نسوق قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَلَقَد خَلَقناكُم ثُمَّ صَوَّرناكُم ثُمَّ قُلنا لِلمَلائِكَةِ اسجُدوا لِآدَمَ فَسَجَدوا إِلّا إِبليسَ لَم يَكُن مِنَ السّاجِدينَ ﴿١١﴾ قالَ ما مَنَعَكَ أَلّا تَسجُدَ إِذ أَمَرتُكَ قالَ أَنا خَيرٌ مِنهُ خَلَقتَني مِن نارٍ وَخَلَقتَهُ مِن طينٍ ﴿١٢﴾ قالَ فَاهبِط مِنها فَما يَكونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فيها فَاخرُج إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرينَ ﴿١٣﴾**" **(الأعراف:11-13)**. فخلق منها زوجها وجعل منها زوجها إذا خلق (وجعل) زوج هذه النّفس الواحدة التي خلقت منها كلّ نفوس البشر إنّما كان مرحلة لاحقة على خلق جميع البشر من نفس واحدة "خلقكم

من نفس واحدة'" فالله عزّ وجلّ خلق جميع البشر من نفس واحدة، جميع البشر دون استثناء، وبعد ذلك خلق (وجعل) من هذه النّفس الواحدة (ولجميع البشر دون استثناء) زوجها. ومنه نستخلص أنّ الفعل (جَعَلَ) قد جاء في القرآن الكريم على معنيين:

المعنى الأوّل: جَعَلَ بمعنى صيّر وهو الذي ينصب مفعولين ومثاله قوله تعالى ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴿٢﴾"[48] **(الإنسان:2)**. المعنى الآخر: جَعَلَ بمعنى خَلَق وهو الذي ينصب مفعولاً واحداً وقوله تعالى :﴿**خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّـهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ** ﴿٦﴾" **(الزّمر:6)**

إذن فما جاء في سورة النّساء في قصّة الخلق يعني أنّ الإنسان خلق من نفس واحدة حصرا ولا يوجد من خلق غيره منها، ومن هذه النّفس نفسها خلق زوجها أيّ أن هذا الزّوج خلق حصرا من تلك النّفس. وفي سورة الأعراف يؤكّد عزّ وعلا أنّه جعل زوجها منها ليسكن إليها لكن ليس هو الوحيد الذي جُعِل منها، فقد جُعِل منها أيضا غير زوجها.. فقد جعل الله تعالى شيئا آخر أو أشياء أخرى من تلك النّفس، قد لا نعلمها نحن، وقد يكون المقصود منها الذّريّة كما جاء عن الدّكتور السّامرائي.

وممّا سبق نقول إنّ اللّغة أيّا كانت لا تتضمّن ترادفا مطلقا بين ألفاظها، ومن ثمّ لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون دلالة لفظ مكافئة لدلالة لفظ مختلف، ومن ثمّ فلفظ خلق وجعل قد تكون لهما سمات دلاليّة مشتركة وسمات دلاليّة خاصّة مميّزة لكلّ منهما. فيخصّ الخلق ابتداء كل شيء، أمّا الجعل فلا يعني الابتداء.

ومن اللّطائف التي وردت كذلك الاختلاف في قوله تعالى: ﴿**وَالتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا اية لِّلْعَالَمِينَ** ﴿٩١﴾"[49]

قوله تعالى: وقال في سورة التّحريم: ﴿**مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ** ﴿١٢﴾"[50]

قال: أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الأصفهاني المعروف بالخطيب الإسكافي (المتوفى: 420هـ) في كتابه: درة التّنزيل وغرة التّأويل: " للسائل أن يسأل فيقول: هل كان مختاراً أن يعود ضمير المذكّر في الآية من سورة الأنبياء فيجيء " **فَنَفَخْنَا فِيهِ**"

كما جاء في الآية الأخيرة؟ أم لكلّ مكان ما يختص باللفظ الذي جاء عليه؟ والجواب أن يقال: لما كان القصد في سورة الأنبياء إلى الإخبار عن حال مريم وابنها، وأنهما جُعلا اية للناس، وكان النّفخ فيها ممّا جعلها حاملا، والحامل صفة للجملة، فكأنّه قال: (والتي أحصنت فرجها) فصيّرها النّفخُ حاملا حتى ولدت، والعادة جاريّة أن لا تحمل المرأة إلا من فحل، ولا يولد الولد من غير أب، فلما كان القصد التّعجب من حاليهما، وأنها بالنّفخ صارت حاملا ردّ الضّمير إلى جملتها، إذ كان النّفخ في فرجها نفخاً فيها أوجب القصد إلى وصفها بعد النّفخ بصفةٍ ترجع إلى جملتها دون بعضها كان قوله:(فنفخنا فيها) أولى من قوله: (فنفخنا فيه). وأما قوله في سورة التّحريم: ﴿**مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا**﴾ فلما لم يكن القصد فيه إلى التّعجّب من حالها بالحمل عن النّفخ، وولادتها لا عن اقتراب فحل لم يكن ثَمّ من القصد إلى وصف جملتها بغير الصّفة التي كانت عليها قبلها ما كان في الآية الأولى، فجاء اللفظ على أصله، والمعنى: نفخنا في فرجها، ولم يُسَقِ الكلامُ إلى ما سيق إليه في سورة الأنبياء من وصف حالها بعد النّفخ، فاختلفا لذلك.[51] ومن الفروقات الواردة أيضا في هذه القصّة استخدام لفظ (نفخت) و(نفخنا) في قصّة خلق آدم وعيسى عليهما السّلام ففي قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴿٧٢﴾"[52]. أمّا في قصّة عيسى فجاءت بلفظ (فنفخنا). فنفخت فيه من روحي.(هنا كان النّفخ من الله عزّ وجلّ مباشرة وهو النّفخ في الطّين فكان بذلك آدم. أمّا النّفخ في مريم فلم يكن نفخا مباشرا وإنّما كان بواسطة جبريل عليه السّلام فكان عيسى عليه السّلام فجاء التّعبير المناسب بقوله تعالى: "فنفخنا" ﴿**وَالتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا اية لِّلْعَالَمِينَ** ﴿٩١﴾ (**الأنبياء:91**): ﴿**مَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ التي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ** ﴿١٢﴾(**التّحريم:12**). **ومن الفروقات في هذه المحطة ما جاء في برنامج لمسات بيانيّة:** بين هاتين الآيتين أكثر من نقطة يجب الالتّفات إليها وهي كما يأتي:

1–في سورة الأنبياء لم يذكر اسم مريم عليها السّلام بينما ذكره في سورة التّحريم. والسّبب في ذلك هو أنه أولاً في سورة الأنبياء كان السّياق في ذكر الأنبياء (إبراهيم

لوط، موسى، وزكرياء ويحيى) ثم قال (والتي أحصنت فرجها (ولم يُصرّح القرآن باسمها لأن السّياق في ذكر الأنبياء وهي ليست نبيّة أما في سورة التّحريم فذكر اسمها لأنّ السّياق كان في ذكر النّساء ومنهم (امرأة فرعون، امرأة لوط وامرأة نوح) فناسب ذكر اسمها حيث ذكر النّساء. والتّصريح بالاسم يكون أمدح إذا كان في المدح وأذمّ إذا كان في الذّم. ونلاحظ في سورة التّحريم أنّها من أعلى المذكورات في سياق النّساء ولهذا ذكر اسمها من باب المدح. أمّا في سورة الأنبياء فهي أقلّ المذكورين في السّورة منزلة أي الأنبياء فلم يذكر اسمها وهذا من باب المدح أيضاً.

2–ذكر ابنها في سورة الأنبياء ولم يذكره في سورة التّحريم. وهذا لأنّ سياق سورة الأنبياء في ذكر(نبيّ أيضاً فناسب ذكره وفيها ورد ذكر ابني في الأنبياء وابنها (عيسى، إبراهيم ويحيى بن زكريا) فناسب ذكر ابنها أيضاً في الآية ولم يذكره في التّحريم لأن السّياق في ذكر النّساء ولا يناسب أن يذكر اسم ابنها مع ذكر النّساء.

3–لم يذكر أنّها من القانتين في الأنبياء وذكرها من القانتين في سورة التّحريم. ونسأل لماذا لم تأت (القانتات) القانتات بدل القانتين؟ لأنّه في القاعدة العامة عند العرب أنّهم يغلّبون الذّكور على الإناث وكذلك في القرآن الكريم عندما يذكر المؤمنون والمسلمون يغلّب الذّكور إلاّ إذا احتاج السّياق ذكر النّساء ومخاطبتهن. وكذلك عندما يُذْكر جماعة الذّكور يقصد بها العموم. وإضافة إلى التّغليب وجماعة الذّكور فهناك سبب آخر وهو أنّه ذكرها من القانتين وهو أنّ آباءها كانوا قانتين فهي إذن تنحدر من سلالة قانتين فكان هذا أمدح لها وكذلك أن الذين كملوا من الرّجال كثير وأعلى أي هي مع الجماعة الذين هم أعلى فمدحها أيضاً بأنّها من القانتين ومدحها بآبائها وجماعة الذّكور والتّغليب أيضاً. ونعود إلى الآيتين ونقول لماذا جاء لفظ (فيه) مرة و(فيها) مرة أخرى؟ فنقول إنّ الآية في سورة الأنبياء (**فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا**) أعمّ وأمدح: دليل أنّها أعمّ: ونسأل أيهما أخصّ في التّعبير؟ فنقول إنّ قوله تعالى (**وَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا**) أعمّ من (**نَفَخْنَا فِيهِ**) وأمدح. إذن (مريم ابنت عمران) أخصّ من (التي أحصنت فرجها) فذكر الأخصّ مع الأخصّ وجعل العام مع العام. وكذلك في قوله تعالى (وجعلناها وابنها) في سورة الأنبياء أعمّ فجاء بـ (فيها) ليجعل الأعمّ مع الأعمّ. وسياق الآيات في سورة الأنبياء تدل على الأعمّ.

لماذا هي أمدح؟ أيّهما أمدح الآية (وجعلناها وابنها آية) أو(صدّقت بكلمات ربها)؟ الآية الأولى أمدح لأنّ أيّا كان ممكن أن يصدق بكلمات ربها لكن لا يكون أيّا كان اية، والأمر الثّاني أن ذكرها مع الأنبياء في سورة الأنبياء لا شك أنه أمدح من ذكرها مع النّساء في سورة التّحريم فالآية في سورة الأنبياء إذن هي أمدح لها. ومن الملاحظ في قصّة مريم عليها السّلام وعيسى أنّ الله تعالى جاء بضمير التّعظيم في قوله تعالى (فنفخنا فيها) أي عن طريق جبريل وهذا الضّمير للتعظيم يأتي دائماً مع ذكر قصّة مريم وعيسى عليهما السّلام أمّا في قصّة آدم يأتي الخطاب (فنفخت فيه من روحي) لأنّ الله تعالى قد نفخ في آدم الرّوح بعد خلقه مباشرة أمّا في مريم فالنّفخ عن طريق جبريل.

*ما دلالة ضمير التّعظيم في قوله تعالى (فنفخنا فيها من روحنا) والإفراد فى قوله تعالى (ونفخت فيه من روحى)؟ إذا كان في مقام التّعظيم يسنده إلى مقام التّعظيم وإذا كان في مقام التّوحيد يكون في مقام الإفراد، يقول تعالى ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلـهَ إِلّا أَنا فَاعبُدني وَأَقِمِ الصّلاةَ لِذِكري ﴿١٤﴾ إِنَّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخفيها لِتُجزى كُلُّ نَفسٍ بِما تَسعى ﴿١٥﴾**"**(طه14-15)**. إذا كان في مقام التّوحيد يُفرِد وإذا كان في مقام التّعظيم يجمع. ﴿ **قالَ كَذلِكَ قالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَد خَلَقتُكَ مِن قَبلُ وَلَم تَكُ شَيئًا ﴿٩﴾**"**(مريم9)**. وقسم أيضاً يقول إنّه إذا كان أمر الله بواسطة المَلَك يلقيه يأتي بضمير الجمع وإذا لم يكن كذلك يُفرِد. على سبيل المثال: ﴿**وَالتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا اية لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾**"**(الأنبياء 91)**. لأنّ النّافخ تمثل لها بشراً سوياً بوساطة ملك أمّا عن آدم فقال تعالى﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾**"**(ص72)**. إذا كان الأمر بوساطة الملك يجمع "**قُلنَا احمِل فيها مِن كُلٍّ زَوجَينِ اثنَينِ ﴿٤٠﴾**" **(هود 40)** الملك يبلِّغ هذا. فهذا أمر عام، لكن هناك أمر آخر نذكره وهو أنّه في كلّ مقام تعظيم لا بدّ أن يسبقه أو يأتي بعده ما يدلّ على الإفراد في القرآن كله. لا تجد مكاناً للتعظيم إلا وسبقه أو جاء بعده ما يدل على الإفراد ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾**"**(القدر1)** هذه تعظيم ثم يقول بعدها ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾**"**(القدر 4)** رب واحد إفراد ما قال بأمرنا. لو قرأنا في سورة النّبأ "**أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا**

﴿٨﴾ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾**"**(النّبأ 6–10)** ثم قال ﴿**جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾**"**(النّبأ36)**. بعد كل جمع تعظيم إفراد. ليس هناك في القرآن موطن تعظيم إلا سبقه أو جاء بعده ما يدل على المفرد ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾**"**(الكوثر 1–2)** لم يقل فصلِّ لنا. هذا لم يتخلّف في جميع القرآن مطلقاً. إذن عندنا مقام تعظيم ومقام توحيد، يجمع في مقام التّعظيم ويفرد في مقام التّوحيد ويقال إنّه إذا كان بوساطة المَلَك يجمع مع احتراز أنّه ليس هنالك مقام تعظيم إلاّ وقبله أو بعده إفراد.[53]وتعقيبنا على الدّكتور السّامرائي ففحواه أنّ اللّه تعالى في سورة الأنبياء لم يذكر اسم الصّديقة مريم بل قال وأثنى عليها (والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيه) وهنا يتجلّى أدب التّوشيح في البيان القرآني، حيث لم يذكر الاسم بل وشّحه بستار الضّمير (التي) فعندئذ قال تعالى (فيها) وفي هذا إشارة إلى مباشرة الملك الذي تمثّل لها بشرا ليهب لها ولدا بإذن الله فهنا قد باشر مريم الصّديقة روح القدس مع عيسى الذي نُفخ في جيبها. نقول إذن: إنّ اللفظ في القرآن له غاية ووسيلة نحن لا نعرف كيفيّة النّفخ ولا يعلمها إلا الله تعالى؛ فنفخ جبريل في مريم فكان عيسى وهذا أمر سهل لأنّ عيسى له أم، أمّا النّفخ في آدم فهذا أعجب لأن آدم لم يكن له أب ولا أم. ومن اللّمسات البيانيّة التي ارتأينا أن نعرّج عليها قوله تعالى: "يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيّا" وفي هذا جدل كبير إن كان هارون أخا لمريم أو شخصا آخر. ولنا في هذا قول فنحن نرى أنّ كلّ الكلام من باب الجدل، فلا يوجد دليل ثابت على هذا الكلام فظاهر الآية أنّ لها أخا اسمه هارون أو نسبتها لصالح اسمه هارون. نعلم يقينا أنّه في لغة العرب يقولون أخت القوم بدل ابنة القوم، وفي الحديث قيل: "ابن أخت القوم منهم" أيّ أنّ الشّخص ليس غريبا عن عائلة أخواله. جاء في سورة هود قوله تعالى: ﴿**وَإِلى عادٍ أَخاهُم هودًا قالَ يا قَومِ اعبُدُوا اللَّـهَ ما لَكُم مِن إِلـهٍ غَيرُهُ إِن أَنتُم إِلّا مُفتَرونَ ﴿٥٠﴾**"**(هود50)** هنا نفهم أنّ عادا هم قوم نبيّ الله هود وليسوا إخوانه، وفي الآية 61 قوله: ﴿**وَإِلى ثَمودَ أَخاهُم صالِحًا قالَ يا قَومِ اعبُدُوا اللَّـهَ ما لَكُم مِن إِلـهٍ غَيرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرضِ وَاستَعمَرَكُم فيها فَاستَغفِروهُ ثُمَّ توبوا إِلَيهِ إِنَّ رَبّي قَريبٌ مُجيبٌ ﴿٦١﴾**"**(هود61)** هنا نفهم أنّ ثمود هم قوم صالح وليسوا إخوانه، وفي الآية 84: ﴿**وَإِلى مَديَنَ أَخاهُم شُعَيبًا قالَ يا**

قَومِ اعبُدُوا اللَّـهَ ما لَكُم مِن إِلـهٍ غَيرُهُ وَلا تَنقُصُوا المِكيالَ وَالميزانَ إِنّي أَراكُم بِخَيرٍ وَإِنّي أَخافُ عَلَيكُم عَذابَ يَومٍ مُحيطٍ ﴿٨٤﴾"**(هود 84)** يوم محيط" هنا نفهم أنّ" مدين هم قوم شعيب وليسوا إخوانه، ومن ثمّ فإنّ كلمة (أخت هارون) التي نعتت بها السّيدة مريم لا تعني أنّها بالفعل أخته بل تعني أنّها من سلالتّه وشبّهت بأخته لأنّها كانت وأهلها على سلوك طيّب. وقيل أيضا: حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا) قال: كانت من أهل بيت يعرفون بالصّلاح، ولا يعرفون بالفساد ومن النّاس من يعرفون بالصّلاح ويتوالدّون به وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدّون به، وكان هارون مصلحا محببا في عشيرته، وليس بهارون أخي موسى، ولكنّه هارون آخر. قال: وذكر لنا أنّه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفا، كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل[54].

إذن فكانت مناداتهم "يا أخت هارون" من باب التّشبيه أيّ أنّها أشبه بهارون في الصّلاح والتّقوى والاستقامة والهداية وليس الضّلال أو البغاء لأنّهم كانوا وكانت من سبط النّبي هارون عليه السّلام. فكانت مريم أخت هارون نبيّ الله تماثلا بالفعل.

كما يمكننا أن نقول إنّها شبّهت به لفصاحة لسانها وهي الفصيحة التي لم تتكلّم فاستغرب قومها من فعلها بألاّ تتكلمّ وهي فصيحة اللّسان، ونستدلّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾**"[55] فقد عرف عن هارون أخي موسى فصاحة اللّسان.

وممّا ورد من اللّطائف البيانيّة التّكرار في قوله تعالى:﴿**وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾**"**[آل عمران:42-43]**، فها هو السّياق يواصل الحديث عن نِعم الله عزَّ وجلّ على آل عمران، وكيف اصطفاهم المولى عزّ وجلّ وفضّلهم، حيث بدأ السّياق بالحديث عن امرأة عمران واستجابة المولى لدعائها، وقبوله سبحانه لنذرها. ولقد اختارها الله لهذا المقام الأسمى حيث جعلها من بيتٍ صالح، وقبلها قبولاً حسناً، وأنبتها نباتاً حسناً، وهذا إخبار من الله تعالى بما خاطبت به الملائكة مريم عليها السّلام عن أمر الله لهم بذلك أن الله قد اصطفاها أي اختارها؛ لكثرة عبادتها وزهدها وطهارتها. فجاء الاصطفاء هنا اختيارا منه عزّ وجل

لها لطاعته وعبادته، ولتكون اية للنّاس مع ابنها. واصطفاك على نساء العالمين أيّ اختاركِ وفضلكِ واجتباكِ على سائر النّساء، يحتمل أن يكون عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ أي على نساء زمانكِ. وقد يكون الاصطفاء على نساء العالمين مطلقًا.

فهنا: وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، فالاصطفاء الأول: هو بما أعطاها وأولاها من الأخلاق الكاملة والصّفات المحمودة وما أشبه ذلك. والاصطفاء الثّاني: اصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ متعلق بما بعده، هذا اصطفاء على سائر النّساء، اختارها من بين سائر النّساء، فالاصطفاء الأول غير الاصطفاء الثّاني، الأول اصطفاها لتلك الفضائل والمكارم والأخلاق وما حلّاها الله وجملها به والاصطفاء الثّاني على سائر النّساء. فكان في المرة الأولى كانت لبيان الاصطفاء المطلق، بين كل البشر، وفي الثّانيّة إشارة إلى أفضليتها على سائر نساء العالمين. فلا تكرار في الحقيقة في الآية؛ لأنّ الاصطفاء في المرّة الثّانيّة ليس بمعنى الاصطفاء في المرة الأولى، بل هو ثمرة له، وقد اصطفى الله تعالى مريم وانتقاها من بين النّساء، ونشأها نشأة حسنة وأنبتها نباتاً حسناً وأسبغ عليها نعمه وتوفيقه ورعايته وألهم أمّها أن تنذرها له وهي في بطنها، ليجعلها خالصّة له محررة له وهيَّأ لها الحياة والعيش تحت كنف نبيٍّ كريم هو زكريا عليه السّلام ورعايته، وقدَّم لها الرّزق المنوَّع الشّامل وهي في المحراب تكريماً لها.[56]

ونقول أخيرا إنّها المرأة الوحيدة التي ذكرت في القرآن، فبقيّة النّساء في القرآن يقال لهنّ: أم موسى، امرأة فرعون لكن الوحيدة المذكورة باسمها في القرآن السّيدة مريم وقد ذكرت 33 مرّة، وقد خصّها الله بسورة كاملة باسمها، وهذا يدلّ على منزلتها ومقامها الأسمى وإن لم تبلغ مرتبة النّبوة. وفي لمسة بيانيّة نختم بها الآية رقم في قوله عزّ وجل: ﴿**وَالسّلامُ عَلَيَّ يَومَ وُلِدتُ وَيَومَ أَموتُ وَيَومَ أُبعَثُ حَيًّا** ﴿٣٣﴾"**(مريم:33)** السّلام هنا وردت معرفة ونحن نعرف أنّ المعرفة هو ما دلّ على أمر معيّن محدّد، ولكن في الآية في قوله جلّ وعلا: ﴿**وَسَلامٌ عَلَيهِ يَومَ وُلِدَ وَيَومَ يَموتُ وَيَومَ يُبعَثُ حَيًّا** ﴿١٥﴾"**(مريم: 15)** سلام هنا نكرة والأصل في النّكرة العموم، فكلمة سلام إذن عامّة والسّلّام تفيد أمرا معيّنا. ولوعدنا إلى آية القرآن وجدنا أنّ الله لم يحيّ إلاّ بالتّنكير مثل قوله تعالى: ﴿**قُلِ الْحَمْدُ لِلَّـهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الذينَ اصْطَفَى آللَّـهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ** ﴿٥٩﴾"**(النّمل:59)** "**سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ** ﴿١٠٩﴾"**(الصّافات:109)** "**سَلَامٌ قَوْلًا مِّن**

رَبٌّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾"(يس: 58)" وَسِيقَ الذينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالدِينَ ﴿٧٣﴾"(الزّمر:73) فالتّنكير أعمّ وأشمل من قبل الله ليحيى وفي عيسى عليه السّلام سلّم على نفسه وهنا يفيد التّخصيص وليس العموم.

5. خاتمة: ختاما نقول إنّه مهما تعدّدت الآراء واختلف الدّارسون يكفينا معرفة معجزة خلقه عليه السّلام من غير أب، ونطقه في المهد وأمّه الصّديقة لم يمسسها بشر، ومدّة الحمل ليست بالمعجزة، إنّما الإعجاز هو الحمل دون أب.

النّتائج: ونخلص في الأخير إلى ما يأتي:

1-لو كانت مدّة حمل مريم عليها السّلام مهمّة لذكرها ربّ العالمين ورسوله.

2-لو كان حملها عليها السّلام يوما واحدا لآمن الجميع بالمعجزة ولما قذفوها بالزّنا.

3- خلق عيسى عليه السّلام من نفس واحدة هو كخلق حوّاء من آدم أيضا من نفس واحدة وهو آدم فقد خلق الله آدم ومريم خلقا خاصّا يناسب خلق حوّاء وعيسى بن مريم من نفس واحدة.

4- الإيمان بولادة عيسى عليه السّلام بنفخة الملك دون أب وهي معجزة لبني إسرائيل أمّا فترة الحمل لا تعني لنا شيئا.

5- "مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون" وخلق آدم دون أمّ ولا أب وخلق عيسى دون أب فلا توجد فترة زمنيّة لذلك الحمل فقال له سبحانه وتعالى كن فكان معجزة ذاك الزّمان.

6-لا شكّ في أنّ فترة الحمل عند مريم عليها السّلام أقلّ من الحمل العادي لأنّ الحمل بجملته معجزة ومدّة الحمل أيضا لا بدّ من أن تكون معجزة، وسياق الكلام يدلّ على ذلك، ولكن لا نحصرها بساعة أو ساعتين أو كما قيل حملت بالظّهر وأنجبت بالعصر، فقد يكون الحمل أيّاما.

7- إنكار القوم لحملها ليس دليلا على أنّ مدّة حملها طبيعيّة لأنّهم لم يكونوا على اتّصال بمريم فكما قال تعالى: "اتّخذت من دونهم حجابا" فقد يجوز أنّهم ظنّوا أنّها كانت حاملا وفي حجرها ثمّ لما اقتربت الولادة خرجت فولدت لتعود وهي تحمل طفلها.

6. قائمة المراجع:

القرآن الكريم.

1. رير والتّنوير، ج16، الدّار التّونسيّة للنشر والتّوزيع، تونس1948م.
2. محمّد بن علي بن محمّد الشّوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدّراية من علم التّفسير، ج1، دار الفكر، بيروت.

---

1. أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي:جامع أحكام القرآن،ج8ط2 دار الكتب المصريّة، ص57.
2. أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الأصفهاني المعروف بالخطيب الإسكافي: درة التّنزيل وغرة التّأويل، تح: محمّد مصطفى آيدن، جامعة أم القرى، وزارة التّعليم العالي، سلسلة الرّسائل الموصى بها (30) معهد البحوث العلميّة، مكة المكرمة ج1 ط1، 1422هـ، 2001م.
3. أبو القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالرّاغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تح، عدنان الدّاودي، ط1، دار القلم، الدّار الشّاميّة، دمشق-1412هـ.
4. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربيّة المعاصرة، مج1، ج2، ط1، عالم الكتب، القاهرة، 1429هـ-2008م.
5. رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن أبي موسى الأشعري.
6. سيد قطب، في ظلال القرآن، ج1،1 دار الشّروق للطباعة، القاهرة، ط32 2003م.
7. شهاب الدّين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تح:علي عبد الباري عطيّة،ج ج8، دار الكتب العلميّة- بيروت، الطّبعة: الأولى،1415 هـ.
8. الطّباطبائي: تفسير الميزان، ج14، مصدر الكتاب، موقع الكوثر، ص 28-35. : http //www.al-kawthar.com/maktaba/list2.htm
9. فاضل السّامرائي، الحصّة التّلفزيونيّة، لمسات بيانيّة.
10. محمّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشّهير بالإمام أبو جعفر الطّبري: جامع البيان في تفسير القرآن، ج18، د.ت، دار المعارف.
11. محمّد جواد مغنيّة: التّفسير الكاشف، ج5، د.ط، دار الكتاب الإسلامي 2005م. محمّد الطّاهر بن عاشور: التّح

3. مجد الدّين أبو طاهر محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تح: محمّد نعيم العرقسوسي، ج1، ط8، الرّسالة للطباعة والنّشر-بيروت-لبنان 1426هـ،2005م، مادة خلق.

4. مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزّيات، حامد عبد القادر، محمّد البحار)، المعجم الوسيط، ج2، دار الدّعوة.

8. هوامش[3]:

[1] سورة مريم، الاية 71.

[2] شهاب الدّين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تح علي عبد الباري عطيّة، ج8، (دار الكتب العلميّة – بيروت، الطّبعة: الأولى، 1415 هـ)، ص377.

[3] "سورة مريم"، www.marefa.org، اطّلع عليه بتاريخ 03-12-2019. بتصرّف.

[4] سورة آل عمران، الاية 42.

[5] سورة التّحريم، الاية 12.

[6]رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن أبي موسى الأشعري، الصّفحة أو الرّقم: 3411 صحيح.

[7] سورة مريم ، اطّلع عليه بتاريخ 03-12-2019. بتصرّف. www.wikiwand.com

[8] سورة مريم ، اطّلع عليه بتاريخ 03-12-2019. بتصرّف. www.wikiwand.com

[9]رواه الشّوكاني، في فتح القدير، عن عكرمة مولى ابن عباس، الصّفحة أو الرّقم: 488/3 مرسل.

[10]سورة مريم، الاية: 64

[11]سورة مريم، الاية: 66.

[12] سورة مريم، الاية: 77.

[13] سورة مريم، الاية: 96.

[14] سورة مريم، الاية 19.

[15]سورة مريم، الاية 19.

[16] سورة مريم، الاية 22.

[17] سورة مريم، الآيتان 2-3.

[18] محمّد الطّاهر بن عاشور: التّحرير والتّنوير، ج16، (الدّار التّونسيّة للنشر والتّوزيع تونس1948م)، ص79-80.

[19] محمّد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدّين ابن منظور الأنصاري الرّويفعي الإفريقي، لسان العرب، ج14، ط3، (دار صادر، بيروت–لبنان، 1414ه)، ص175.

[20] سورة مريم، الآيات 16–23.

[21] أبو القاسم الحسين بن محمّد المعروف بالرّاغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تح، عدنان الدّاودي، ط1، (دار القلم، الدّار الشّاميّة، دمشق–، 1412ه) ص788.

[22] سورة مريم، الاية 17.

[23] محمّد جواد مغنيّة: التّفسير الكاشف،ج5،د.ط،(دار الكتاب الإسلامي،2005م) ص174–175.

[24] سورة مريم، الاية 18.

[25]سورة مريم، الآيات 18–21.

[26] سورة مريم، الآيات 7–9.

[27] سورة آل عمران، الاية 47.

[28] سورة آل عمران، الاية 45.

[29] فاضل السّامرائي، الحصة التّلفزيونيّة، لمسات بيانيّة، حلقة 147.

[30]الطّباطبائي: تفسير الميزان، ج14، مصدر الكتاب، موقع الكوثر، ص 28–35.–www.al// http kawthar.com/maktaba/list2.htm

[31] أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربيّة المعاصرة، مج1، ج2، ط1، (عالم الكتب القاهرة، 1429ه–2008م)، ص1638.

[32] مجمع اللغة العربيّة بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزّيات، حامد عبد القادر، محمّد البحار)، المعجم الوسيط، ج2، دار الدّعوة، ص1056.

[33] سورة مريم: الاية 22.

[34] سورة مريم: الاية 23.

[35] محمّد بن علي بن محمّد الشّوكاني: فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدّراية من علم التّفسير، ج1، (دار الفكر، بيروت)، ص886.

[36] سورة مريم: الاية 24.

[37] سورة آل عمران: الاية 59.

[38] لقاء مع الدّكتور: جامعة مولود معمري تيزي، وزو، يوم 2020/10/28.

[39] سورة مريم: الاية 43.

[40] سورة مريم: الاية 30.

[41] سورة الزّخرف: الاية 59.

[42] أبو عبد الله محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي: جامع أحكام القرآن،ج8، ط2،(دار الكتب المصريّة)،ص57.

[43] سورة النّساء: الاية 1.

[44] سورة الأعراف: الاية 189.

[45]مجد الدّين أبو طاهر محمّد بن يعقوب الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تح: محمّد نعيم العرقسوسي،ج1،ط8،(الرّسالة للطباعةوالنّشر–بيروت–لبنان،1426هـ،2005م)،مادةخلق، ص880.

[46] زين الدّين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرّازي، مختار الصّحاح، تح: يوسف الشّيخ محمّد، ط5، (المكتبة العصريّة–الدّار النّموذجيّة، بيروت–صيدا، 1420هـ، 1999م)، مادة جعل، ص58.

[47] فاضل السّامرائي: حصة تلفزيونيّة، لمسات بيانيّة، حلقة 37.

[48] سورة الإنسان: الاية 2.

[49] سورة الأنبياء: الاية 91.

[50] سورة التّحريم: الاية 12.

[51]أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الأصفهاني المعروف بالخطيب الإسكافي: درة التّنزيل وغرة التّأويل، تح: محمّد مصطفى آيدن، جامعة أم القرى، وزارة التّعليم العالي، سلسلة الرّسائل الموصى بها (30) معهد البحوث العلميّة، مكة المكرمة، ج1، ط1، 1422هـ 2001م، ص912،913.

[52] سورة ص، الاية 72.

[53] فاضل السّامرائي، حصة تلفزيونيّة، لمسات بيانيّة حلقة 148.

[54] محمّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشّهير بالإمام أبو جعفر الطّبري: جامع البيان في تفسير القرآن،ج18، (د.ت، دار المعارف)، ص187.

[55] سورة القصص الاية 34.

[56]سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشّروق للطباعة، القاهرة، ط32، 2003م، 1/ 395 – 396.